توأمان .. ولكن

انتفضت من نومي على صرخات متواصلة لأحدى ولدىَّ التوأمين .

كأس النوم ما زال يسكرني، وضعت قدمي على الأرض ، تاركاً لهما حرية الحركة ، حيطان البيت راحت تتخبطني فيما بينها حتى وجدتني أقف أمامهما ، تمنيت لو أن سبب البكاء _هذه المرة _ يكون مختلفاً عن المرات لسابقة، وما إن وقعت عيني على أخيه في الجانب الآخر من الحجرة وهو يحاول جاهدا كتم ضحكاته حتى عرفت السبب، وقفت بينهما حائراً .. غاضباً دون أن أتفوه بكلمة واحدة ، فلم يعد لدى ما أقوله ، غير أنى رحت أنظر إلى طفلي الذي لم يتوقف لحظة واحدة عن البكاء تارة ، وتارة أخرى أنظر إلى شقيقه الذي ما زال يكتم أنفاس ضحكاته ، إلى متى سوف تستمر هذه المسرحية الهزلية التي لا أعرف من قام بتأليفها أو إخراجها ، كل ما أعرفه أن التوأمين يتبادلان أدوار البطولة فيما بينهما ، وآخر هذه الأدوار أن قام أحدهما برفع الغطاء عن أخيه وهو نائم بجواره، حتى إذا ما استيقظ الآخَر وجد نفسه غارقاً في بوله، من جراء برد الشتاء ، لقد ضاقت بي وبهما زوجتي، فأول من أمس كادت زوجتي أن تضرب رأسها في جدار الحجرة ، بعدما وجدتني أرفض وبشدة ما اقترحته على ، أن أفرق فيما بينهما، فالبيت كبير .. كبير جداً ، ويسع من الحجرات الكثير ، إنه الحل الأمثل من وجهة نظرها ، ولكن مهما يحدث فلن

أنصاع للتفرقة؛ حتى لا تتسع دائرة الشتات أكثر من هذا ، فليس من المعقول بعد أن استجاب الله لدعوتي ليل نهار ، ورزقني بولدين ، أن أفرق بينهما .

آه ه ه ه ه ه ه

دقائق قليلة وتتبدل الأدوار ، وينقلب الحال ، سوف يضحك الباكي ، ويبكى الضاحك ، نعم دقائق قليلة ويجمعنا طعام الإفطار ، ويضع الباكي ملعقة كبيرة من الشطة في فنجال شاي الضاحك ، أو يطفئ أحدهما على الآخَر مصباح الحمام، أو أن يرتدى أحدهما ماسْك مصاص الدماء، ويظهر فجأة للآخر ليلاً ، كم تمنيت لو أن يحولا الكره المتبدل فيما بينهما إلى حب .. حب حقيقي يبنى ويعمر .

كثيراً ما جلسنا نحن الثلاثة على مائدة المفاوضات ، نتحاور ، نتبادل أطراف الحديث ، ونخرج سعداء متفقين بعد نزع فتيل الخلاف القائم بينهما ، ساعات قليلة ينعم بها البيت بالراحة ، وسرعان ما يعود الصراخ والخلاف فيما بينهما ، لم أترك شيئاً يجمع بينهما إلا وفعلته ، وكان آخره أنى استعنت بالأهل والأصدقاء بل والجيران ، لنزع فتيل الخلاف القائم بين التوأمين ، ولكن كل هذه المحاولات قد باءت بالفشل ، وعدت أضع يدي أسفل خدي

أفكر في أمرهما ، رافضاً اقتراح زوجتي بعد أن أعلنتها صريحة مدوية :

(ما فيش فايدة .. شيل ده من ده يرتاح ده عند ده)

أقترب من طفلي الذي لم يتوقف لحظة واحدة عن بكائه، وضعت يدي فوق رأسه، ورحت أمرر أصابعي على شعره ، بعدما ضممت رأسه إلى صدري ، رويداً .. رويداً تهدأ ثورة بكائه ، وتجف دموعه تماماً ،

لن أرفع راية اليأس المنقوشة بعلامات الفشل، وأفعل ما قالته زوجتي، لن أسمح للتوأمين " فتحي" و"حمادة " أن يهدما البيت ، راح الصمت يلفنا من كل جانب، رحت أدعو الله أن يلهمني الصبر والأمل ، وعيني على صورة المسجد الأقصى المعلقة على جدار الحجرة ، والتي راحت تتباعد شيئاً فشيئاً من جراء ضعف بصري المتواصل .